خصائص البنية الحوارية في محاورة موسى عليه السلام لفرعون وأسسها الحجاجية

أ٠د٠ بوشعيب بن مسعود راغين (*)

١-تقديم :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي نور بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، و بعد.

يعد القران الكريم نصا تأسيسيا داخل المنظومة الإسلامية بامتياز، وهي مكانة لا تكاد تجد لها مثيلا في الديانات الأخرى على الرغم من كونها مصحوبة بكتاب، ناهيك عن تفرده بالاستقلالية والحرية داخل المنظومة الفكرية الإسلامية، جعلت من موضوع مقاربته وتفسيره وتعاطيه بالدرس والتحليل رهانا أساسيا وموطن اجتهاد دائم .

وهذا يقوم دليلاً على ديمومة الحضور القرآني؛ لما يخلقه فينا على الدوام من حالة ثقافية أو صيرورة تأويلية نشطة، محمومة بحرقة السؤال عن أسباب تأثيره فينا ، وحملنا على الإذعان لمقتضياته، عبر مسالك تعبيرية شكل الحوار واحدا من أبرز تمظهراتها، فهو بمثابة مسرح تتحاور عليه الذوات، وتتجادل ويحاج بعضها بعضا على حد قول د عبد الله صولة، حيث تكثر فيه بصفة لافتة للانتباه حكاية أقوال المتخاصمين والمتخاطبين على اختلاف أنواعهم، بدليل أن نسبة تواتر مشتقات مادة (ق.و.ل)، سواء كانت في سياق حكاية القول المجرد

(*) أستاذ اللسانيات – جامعة طيبة المدينة المنورة.

أو حكاية القول والرد عليه، أعلى نسبة في القرآن، حوالي (١٧٣٠) مرة بعد نسبة التواتر الخاصة باسم الجلالة (الله).[١]

فهو خطاب لأنه قول لغوي متعدد الأغراض والمقاصد، ومن ضمنها الإقناع والتأثير العقلي والنفسي والوجداني؛ أي " قول يفترض متكلما وسامعا مع توفر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع "[٢]. ويتميز القرآن بتعدد وكثرة مخاطبيه (الفعليين والمحتملين و الكونيين). كما أنه خطاب يتميز بالحركية؛ أي أنه ليس خطابا قارا وثابتا من بدايته إلى نهايته، بل إنه يتغير حسبما تقتضيه كل مرحلة من مراحله .

القرآن خطاب حواري لأنه " مسرح تتحاور عليه الذوات وتتجادل وتتخاصم ويحاجج بعضها بعضا"[٣]، أنه خطاب حواري يقدم نفسه على أنه تغيير لوضع وحل لمعضلة صدئت في البحث عن حلها العقول، ونبذ للعنف الذي هو عكس الحجاج " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (يونس : ٩٩)،" فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " (الغاشية : ٢١ – ٢٢)،" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " (البقرة : ٢٥٦)، و " هو استجابة لسؤال أمة " .[٤]

فالقرآن بهذا المعنى إذن حجاجي أو ذو طبيعة حجاجية، أي أنه " يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتب عليه ضرورة تغيير وضع مادي ما، " كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور " (إبراهيم ١)، "وهو بذلك

---

(١) إدريس أوهنا ، أسلوب الحوار في القرآن الكريم الموضوعات والمناهج والخصائص، ص٥.

(٢) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص ٤٥.

(٣) السابق نفسه، ص ٤٦.

(٤) السابق نفسه، ص ٤٥.

خطاب وكتاب إصلاح يهدف إلى تغيير وضع قائم، ومن ثم فهو خطاب حجاج لا مراء"[١].

ولقد اجتمع في القرآن من المعطيات اللغوية – الأسلوبية والبلاغية والدلالية والتركيبية – ما جعله خطابا حجاجيا لغويا متفردا عن غيره من سائر الخطابات، وذا وظيفة حجاجية متميزة؛ "لأنه تميز بالقدرة على التأثير في متلقيه –خصوصا منهم الأولين–، تأثيرا حجاجيا، ومن ثم عقليا . بالإضافة إلى ما له من قدرة على التأثير العاطفي في قلوب أولئك المتلقين ممن أذعنوا له وصدقوا به، وانقادوا إليه عن حماس ديني بحت، وعن عاطفة خالصة وإيمان محض؛ لكونه من عند عزيز حكيم "[٢]. وسنسعى في هذه الدراسة إلى بيان بعض مظاهر الحجاج في القرآن الكريم من خلال تحليل بعض المقاطع والمشاهد الحوارية ذات التوجه الحجاجي، تبعا للخطوات المنهجية التي تضمنتها المحاور التسعة الآتية:

١. البنية الكلامية بنية حوارية ؟

٢. البنية الحوارية بنية اختلافية ؟

٣. الحوار والجدال والمحاجة مقاربة مفهومية.

٤. الحجاج والاستدلال .

٥. الاستعمال القرآني لكلمة (حوار).

٦. مقاصد الحوار ووسائله وشروطه في محاورة موسى لفرعون.

٧. من الحوار الاختلافي إلى الحوار الإقناعي في محاورة موسى لفرعون.

٨. دور الروابط الحجاجية النحوية في خلق الانسجام الحجاجي.

٩. ضوابط جلب الإذعان وصرف الخذلان في محاورة موسى لفرعون .

---

(١) السابق نفسه، ص ٤٦.

(٢) السابق نفسه، ص ٦٢.

٢ – بين الحوار والحجاج والجدل:

٢–١– في ماهية الحوار:

الحوار، في معناه العام : خطاب (أو تخاطب) يطلب الإقناع بقضية أو فعل . وفي معناه الخاص : كل خطاب يتوخى تجاوب متلق مُعين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما.[١] وفي صورته المثلى هو مناقشة بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائل الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى[٢]. في حين اعتبره بسام عجك بأنه :" محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد ، لكل منهما وجهة نظر خاصة به هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر.. بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة ولو ظهرت على يد الطرف الآخر".[٣] وفي اللغة عبارة عن أصل يفيد الحور؛ أي الرجوع عن شيء إلى آخر ، والحور هو النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجوع من حال إلى حال، والتحاور التجاوب، تقول: كلمته فما حار إلى جواب، أي ما رد جوابا[٤] .

٢ – ٢ بلاغة الحوار

تعد بلاغة الحوار بمثابة العلم الذي يتناول مكونات الحوار وأخلاقياته وآليات اشتغاله. وهي تنتمي إلى النظرية العامة للإقناع التي هي فرع من

---

(١) السابق نفسه، ص ٤٥–٤٦.

(٢) أحمد العمري، بلاغة الحوار، ص ٥٥.

(٣) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص : ٢٠٦، ط٢ دار الفكر دمشق ١٩٩٥. وللمزيد من الاطلاع ينظر: محمد مرزوق، الحوار الحجاجي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ٢٠١٥.

(٤) ابن منظور، اللسان، مادة ح و ر، ج٥–ص ٢٩٧.

البلاغة العامة، في مقابل فرع التخييل. وتعد " دائرة الحوار دائرة الممكن، دائرة ما يتطلب إنجازه أخذ " الآخر " بعين الاعتبار . متعاونا (مشاورات) أو منازعا (مناظرا)، أو منقادا دون رؤية (مستهويًا) . و خارج هذه الدائرة توجد دائرة المطلق (أو المطلقات)، حيث يتبدى لنا أن لكل صيغة من صيغ الحوار، أو جنس من أجناسه امتدادًا : ففي امتداد التشاور توجد المعرفة في بعدها التخزيني؛ أي نشاط الذاكرة بشكل أساسي، وفي امتداد المناظرة يوجد التأمل والاعتبار والمعرفة المنطقية والبرهانية؛ أي نشاط العقل بصفة أساسية . وفي امتداد الاستهواء يوجد العنف السيكولوجي والرمزي؛ أي نشاط الوجدان بشكل أساسي " .

وهكذا فإن الحوار يجري داخل دائرة الممكن، ولكنه قد ينزلق خارج الدائرة حين يصادر أحد الطرفين حق الآخر في المعرفة أو النظر أو الاعتبار على سبيل اسغفاله أو الاستخفاف به. وقد يتم الانزلاق من مقام إلى مقام فيختل الحوار أو يضطرب، كما يحدث حين القفز من المشاورة إلى المنازعة، أو من المناظرة إلى الاستهواء كما يقول طه عبد الرحمن[١] .

٢ – ٣ مصادرات حوارية:

- الأصل في الكلام الحوار والأصل في الحوار الاختلاف[٢] .
- لا ندخل الحوار أنا وأنت إلا ونحن مختلفان، بل إننا لا نتحاور إلا ونحن ضدان؛ لأن الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين : أحدهما يطلق عليه اسم (المدعي) وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، والثاني يطلق عليه اسم (المعترض) وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده.

(١) طه عبد الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص ١٦.

(٢) السابق نفسه، ص ١٣.

- حيثما وجد اثنان مختلفان بل ضدان فثمة حوار اختلافي، فإن كان الضدان متواجهين كان الحوار الاختلافي حوارا مباشرا أو قريبا، وإن كان الضدان أحدهما واسطة إلى الاخر كان الحوار الاختلافي حوارا غير مباشر أو بعيدا.
- الحوار الاختلافي حوار نقدي يكون الغرض منه دفع الانتقادات أو الاعتراضات التي يوردها أحد الجانبين المتحاورين على رأي أو دعوى الآخر، بأدلة معقولة ومقبولة عندهما.
- وتندرج محاورة موسى عليه السلام لفرعون – كما سنرى من خلال التحليل – في سياق الحوار الاختلافي الضارب بجذوره في تاريخ الفكر الإنساني والذي يسميه منظرو الحوار المعاصرون بـــ (الحوار الإقناعي) ويسميه البعض (الحوار الإعتراضي)، وعرف لدى علماء المسلمين من قبل بـــ (المناظرة) ، ويعرف بكونه حوارا الغرض منه دفع الانتقادات أو الاعتراضات التي يوردها أحد الجانبين المتحاورين على رأي أو دعوى الآخر بأدلة معقولة ومقبولة عندهما .

٣- ماهية الجدل لغة واصطلاحا :

يعد مفهوم الجدل واحدا من مجالات التناظر في مجالات الحوار في المعتقد الإسلامي، ونظرا لأهميته وقربه من التحاج لا مانع لدينا من التعرض إليه في اللغة لمعرفة أصوله الاشتقاقية التي نرى أنها ستكون خدما وعونا لنا لتقريب الأفهام إلى مفهوم الحجاج، ويمكن أن يكون الجدل لغة مشتقا من أحد الأصول العبارية التالية التي أوردها[١]:

- الجدل وهو الشد والإحكام، يقال: جدلت الحبل أجدله جدلا، ولا شك أن في الجدل معنى الشدة والإحكام؛ لأن كلا من الخصمين يشتد على خصمه

(١) نجم الدين الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، ص ٢ وما بعدها.

ويضايقه بالحجة التي اجتهد في إحكامها، ومن أخذه على دلالة الفتل أو إحكام فتل الحبل أضحى جدل المتجادلين وكأنما يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة .

- الجدل من الجدالة وهي الأرض الصلبة، يقال: جدل الفارس قرينه إذا رماه بالجدالة أي أسقطه، و بافتراض هذا الأصل يكون كل واحد من المتجادلين يقصد غلبة صاحبه وصرعه في مقام النطق كما يجدل الفارس قرينه .
- من المجدل وهو القصر أو الحصن الذي يتحصن به، و بافتراض هذا الأصل يكون كل واحد من المتجادلين و كأنه يتحصن من صاحبه بالحجة تحصن صاحب القصر بقصره أو حصنه .
- من الجدول وهو النهر الصغير الذي يتفتل الماء فيه، و بهذا الأصل يكون كل واحد من المتجادلين وكأنه يقصد فتل صاحبه عن رأيه أو دعواه فتل الماء في النهر .
- من الأجدل وهو الصقر، وبهذا الأصل يمثل المجادل بمن يسطو بالحجة على صاحبه مثله في ذلك مثل الصقر باعتباره أجدلا يسطو على الطير .

أما بعد، فيمكن رد معاني الشد والإحكام والإسقاط على الأرض والتحصين والفتل والسطوة إلى معنى جامع كلي هو (معنى القوة والامتناع والشد والإحكام)، وبذلك يكون الجدل مشتقا من هذا المعنى الجامع الكلي ومن كل واحد من جزئياته الخمسة المذكورة باعتبار ما يشتركان فيه من ذلك المعني وما يختص به الجدل من التعلق بالحجة؛ إذ هو مضايقة بالحجة بأصلية الجدل، وإسقاط بالحجة بأصلية الجدالة، وتحصن بالحجة بأصلية المجدل ، وفتل بالحجة بأصلية الجدول وتقوية الحبل، وسطوة بالحجة بأصلية الأجدل .

والجدل اصطلاحا هو عبارة عن فعل المراد به المدافعة ليظهر الحق؛ أي دفع السائل قول المعلل ودفع المعلل قول السائل، وعلم الجدل هو العلم الذي

يعرف فيه صحيح الدفع وفاسده[١]. وبعبارة أخرى الجدل كفعل رد للخصم عن رأيه إلى غيره بالحجة[٢]، والجدل باعتباره آلة يتوصل بها إلى فتل الخصم عن رأيه إلى غيره بالدليل، أو قانون صناعي يعرف أحوال المباحث من الخطأ والصواب على وجه يدفع عن نفس الناظر والمناظر- أي (المعلل والسائل)- الشك والارتياب .والهدف منه مُخاطبة العقول لتدبُّر أمْرٍ ما؛ لتهتدي فيه إلى الصواب؛ لأنَّ الهدف هو إقناعُ المحاوَر؛ لعله يهتدي إلى الصواب وَفْق آدابٍ وضوابطَ ينبغي مُراعاتها، أوجزها أحد الباحثين فيما يلي: [٣]

١. الانطلاق مِن نقاط الاتِّفاق؛ فإنَّ ذلك أَدْعَى للاستماع؛ لما يُشعر به مِن الاشتراك، وهو تضييقٌ للاختلاف.

٢. الابتعاد عن الجزم بصواب رأيك وخطأ رأي خصمِك، وذلك واللهِ غايةُ الإنصاف، فلا تقُلْ لخصمك: استمع لأُبيِّن.

٣. عدم تجريم الخصم ووصفِ مَذهبه بالبطلان، وإنِ اعتقدتَ جُرمَه وبُطلانَ مذهبه؛ لأنَّ الهدف إقناعُه، لا الحكْم.

٤. إشعار الخصْم بأهمية موضوع المحاورة وخطَره، وأنَّه مِن المواضيع المهمة، وليس أمرًا.

٥. لا عمل تحته، بل هو عمل له ما بَعْدَه، ويتحمَّل صاحبُه مسؤولية قراره، فهو الهدى أو الضلال، والصلاح أو الإجرام، وكلٌّ سيُحاسَب.

٦. افسِح المجال للمحاوَر والمجادَل ليقولَ كلَّ ما عنده، والاستماع له بكلِّ هدوء وحُسْن إنصات، ففي ذلك الإنصاف له، ولعلَّه أن يأتي بما يُقنع إنْ كان مذهبه هو الصواب، أو لعلك تقعُ منه على مَكْمَن الشبهة، فتضع يدك على

---

(١) طاش كبرى زاده، ص ٩-١٠.

(٢) الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، ص ٣ - ٥ .

(٣) محمد ولد سيدي عبد القادر، عن أدب الجدال والمناظرة.

موضع الدَّاء، فتستخرجه مِن أقرب وجه، فإنَّ المُناظِر الذي يَحرص على الإقناع، كالطبيب يفسح المجالَ للمريض ليتكلم عن حالته بكل تفاصيلها .

٧. الاهتمام بالمحفِّزات الذهنية، فأسلوب الاستثارة والتحفيز الذِّهني مِن شأنه أن يُخرج ما عند المحاوَر من حجج وبراهين، ومن أساليب التحفيز الذهني الاستفهام.

٨. الوصول إلى نتيجة أنَّ الهدف مِن المحاورة والمجادلة والمناظرة إنَّما هو الوصول إلى نتيجة، وليس الحوار هدفًا لِذاتِه، فما لم تكُن للحوار نتيجة، فهو مضيعة للوقت، ومَجلبة للتنافر والتدابر والفرقة.

٤ – مفهوم الحجاج

٤-١- حد الحجاج وماهيته:

لقد تعددت تعاريف الحجاج واختلفت باختلاف التصورات النظرية والخلفيات المعرفية الصادرة عنها (تعاريف فلسفية، منطقية، لسانية وتداولية)، منها تعرف ديكرو في كتابه (الحجاج في اللغة) يقول : "الحجاج هو أن يقدم المتكلم قول (ق ١) أو مجموعة من الأقوال، موجهة إلى جعل المخاطب يقبل قولا آخر (ق ٢) أو مجموعة أقوال أخرى سواء أكان (ق ٢) صريحا أم ضمنيا. وهذا الحمل على قبول (ق ٢) على أنه نتيجة للحجة (ق ١) يسمى فعل المحاجة".(١)

فالحجاج إذن هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن فعل المحاجة، فالخطاب هو وسيلة الحجاج، وهو في آن واحد منتهاه، ولكن لا بد من التمييز بين فعل المحاجة، وفعل آخر قريب منه هو فعل الاستدلال، والذي هو فعل لغوي يستلزم إنتاج قول ما، والذي هو عند ديكرو " أن يقوم القائل (م) الذي يقول القول (ق) بفعل استدلال إذا أحال، في الوقت نفسه الذي تقول فيه

(١) Ducrot (Oswald) : " L'argumentationdans la langue " pp ١٠

(ق) محيلا على حدث (س) معين بخدمة على أنه نقطة انطلاق لاستنتاج/ استنباط Réduction يؤدي إلى عملية قول (ق) ".

أما طه عبد الرحمن فيرى أن الحجاج : " فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي و اجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة و مطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعياً في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغني من البنيات البرهانية الضيقة " [١].

يعني هذا القول أن الفعالية الحجاجية صفة لكل خطاب (لغوي طبيعي)؛ لأن حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجيا لا برهانيا صناعيا[٢] ، كما يعني أن الحجاج فعالية حوارية / تخاطبية تفاعلية مقامية، أي أنها بمثابة فعل لغوي تداولي. ويعد فطرة في الخطاب الطبيعي وهذا ما يؤكده نجم الدين الطوفي في (علم الجدل في علم الجدل) بقوله: " إن الجدل صناعة تكاد تكون فطرية إن لم تكن كذلك حقيقة، فإنا نرى العامة، بل الصبيان، تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي. إنما العلماء استخرجوا لصناعة الجدل قوانين وضوابط وأسماء وألقابًا تعرف بها، وقرروا منها ما كان نظريا لا يدرك بالبديهة، ولهذا نرى العلماء يحيطون منها ومن غيرها بما لا يحيط به غيرهم؛ لأن البديهي من ذلك مشترك وزاد العلماء بالنظريات التي لا سبيل لغيرهم إليها "[٣].

---

(١) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص ٦٥.

(٢) السابق نفسه، ص٦٦ .

(٣) نجم الدين الطوفى، علم الجذل فى علم الجدل، ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

مؤدي هذا الكلام أن المناظرة إذن موافقة لطبيعة المخاطبة البشرية الفطرية والطبيعية، وبموافقتها هذه، و بتوخيها إكساب هذه المخاطبة شروط الاستقامة والصحة عن طريق الارتقاء بها إلى أن تكون صناعة لها قواعدها وأصولها، تصبح صناعة المناظرة من أرفع الصناعات قدرا. فأين القرآن الكريم من هذه الصناعة وكيف يمكن لنا الاستفادة منها والاستدلال على ورودها في ثنايا حواراته ؟

٤ –٢– حول حجاجية الخطاب القرآني:

يعد القرآن الكريم النموذج الأسمى للمناظرة والمجادلة ضمن الخطابات الطبيعية، ويمكن إثبات هذا الأمر إجمالا بالقول بأنه: "ورد معجزا بجملته وتفصيله، وشأن المعجز مناقضة الخصم والدلالة على خلاف دعواه "[١] ، كما يمكن إثبات حجاجية الخطاب القرآني بشكل مفصل وذلك من خلال إبراز الوقائع الجدلية فيه، خصوصا وأن الشريعة ليست خطابا مفتقرا إلى الاحتجاج كما يظن جهال المنطقيين؛ لأن القرآن مملوء بالحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد ... فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلا صحيحا على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معني وأبعده عن الإيرادات والأسئلة ... وهذا أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين في العلم، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب، وتسكن عنده النفس، ويزكو به العقل، وتستنير به البصيرة، وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به، بل من خاصم به فلحت حجته وكسر شبهة خصمه، وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله . ."[٢] .

(١) نجم الدين الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، ص ٢٠٩.

(٢) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ١/١٤٤ – ١٤٦ .

إن القرآن الكريم مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة، وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإقامة الحجة والمجادلة، وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه، وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومه وإقامة الحجة عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل .

فالقرآن الكريم إذن حافل بالمناظرات، ولكنها مناظرات وردت على عادة العرب في كلامها وفي تلقي الخطاب الديني، ومرد ذلك أمران :

- "أولهما أن القرآن يخاطب العرب بلسانهم ليبين لهم.
- وثانيهما أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الكثيرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة، تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخاصة من دقيقها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء"[1] .

٥- الحجاج والاستدلال:

إذا كان الحجاج والاستدلال ظاهرتين من مستويين مختلفين، فإن أساس الاستدلال هو علاقة اعتقادات المتكلم بحالة الأشياء؛ أي ترابط الأحداث والوقائع في العالم الخارجي، أما الحجاج فهو موجود في الخطاب، وفي الخطاب فحسب، لا علاقة له بالعالم الخارجي، وعلى هذا الأساس يكون الحجاج خاصية لغوية دلالية وليس ظاهرة مرتبطة بالاستعمالات المقامية، وإذا كان الحجاج يتصل بالعلاقات بين الأقوال في الخطاب، فإن الاستدلال يتصل بالعلاقات بين القضايا التي يحكم عليها بالصدق أو الكذب، ولما كان الحجاج

(١) الزركشي، المحيط في أصول الفقه، ٣٤ / ٢.

مكونا من مكونات البنية اللغوية، ويرتكز على مفهوم التعليمات والتوجيهات الكامنة في هذه البنية، فإن التكيف بنيويا بالترابطات الحجاجية، واحتسابها دلاليا يصبحان ممكنين في مستوى تحليل المكون اللغوي ذاته، ففعل المحاجة باعتباره علاقة بين حجة ونتيجة مختلف عن فعل الاستدلال. فالمحاجة علاقة بين فعلين لغويين لا بين قضيتين، وهذه الخاصية هي التي تجعله أكثر ارتباطا باللغة الطبيعية، هي التي تجعل البحث في الحجاج مؤهلا نظريا لبيان الترابطات الخطابية الفعلية، وتفسير توجيه الأقوال للسامع نحو بعض النتائج دون غيرها. وهذا التوجيه هو الذي يسوغ للبحث في الترابطات الحجاجية الممكنة، بأن مسوغاتها كامنة في البنية اللغوية للأقوال، وليست رهينة المحتوى الخبري للقول ولا رهينة أي بنية استدلالية صناعية من خارج نظام اللغة. فالحجاج عكس الاستدلال مجاله الخطاب الذي تحكمه قوانين داخلية تفرض استئناف القول فيه على هذا الوجه أو ذاك.

٥- الحجاج والحوار:

إن كل خطاب لغوي هو ذو طبيعة حوارية، فكل قول يوجد خلقه قائل/ محاور، يوجه قوله إلى مخاطب / محاور، ولكل واحد من المتحاورين وضع خاص ودور محدد في الحوار، فالأول عارض أو مقترح، والثاني معارض، والقرآن الكريم "كتاب حوار مفتوح لا حدود لأبعاده وآفاقه؛ إذ تبادل هذا الحوار مع أصناف من خلق الله تعالى : مؤمنون و مشركون و منافقون وأهل الكتاب وغيرهم، بدءا من الملائكة والأنبياء عليهم السلام إلى إبليس، من هنا فالقرآن الكريم خطاب لغوي ذو طبيعة حوارية أو تحاورية واضحة المعالم، واشتمل على معجم حواري غيبي (حوار، تحاور، جدال، مجادلة، حجاج، شورى،

مشاورة، و تشاور . .)، بل تجد فيه كذلك الحوار النفسي الداخلي (مثال حوار إبراهيم مع نفسه في معرض بحثه القلق عن إله الشمس، القمر)"[١].

وقد وردت كلمة " حوار " في القرآن الكريم في ثلاث آيات: مرتين في سورة "الكهف":"وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾، " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴿٣٦﴾، ومرة واحدة في سورة المجادلة " (الآية: ١) : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

غير أن النص القرآنى حافل بمشاهد حوارية متعددة صريحة ومضمرة ، وحوارات مباشرة أو غير مباشرة دارت حول موضوعات متنوعة وسلكت مناهج محددة واتسمت بخصائص معينة. فليس " من قبيل الصدفة أن يعطي الحوار مساحات كبيرة من كتاب الله تعالى، وهذه من خصائصه الإعجازية لأنه نزل في مرحلة من مراحل التاريخ البشري حيث التعصبات الفاحشة، والتطاحنات القبلية، والحميات الجاهلية التي لا تعرف شيئا اسمه الحوار مع الآخر، وحماية حقه في التعبير عن رأيه خصوصا إذا كان هذا الآخر مخالفا غير موالف. ويعتبر الحوار من أهم أشكال التفاعل الخطابي، وهو المجال الطبيعي والحقيقي للحجاج، ففيه يُواجه بين المواقف والآراء، وتعرض الحجج والحجج المضادة . ويلعب الحجاج في الخطابات الحوارية دورا توجيهيا في تسلسل الأقوال وفي ضمان الانسجام بين وحدات الخطاب وفقراته. وقد تنبه العديد من اللسانيين إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الحجاج والحوار"[٢].

---

(١) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته، ص ١٦، دار الملاك للطباعة والنشر ط١، بيروت لبنان.

(٢) إدريس أوهنا، مرجع سابق، ص٥.

وفي السياق ذاته، انكبت أعمال اللسانيين المنتمين إلى مدرسة جنيف بسويسرا على الربط بين نظرية الحجاج في اللغة التي اقترحها أوزفالد ديكرو ونظرية التحليل الحواري أو التخاطي التي وضع أسسها وطورها كل من إيدي رولي Eddy Roulet الذي أشرف على إنجاز مؤلف (تمفصلات الخطاب في الفرنسية المعاصرة) (Articulation du discours en Jacques Moeschler , francais moderne)، في العديد من كتبه، وخصوصا كتابه الشهير (الحوار والحجاج) (Conversation et argumentation)، ولسانيون آخرون أسهموا في تطوير هذا النموذج الهرمي الوظيفي(Modelehierarchique fonctionnel)، من خلال مؤلفات ومقالات عديدة نشرت في مجلة (Cahiers de linguistique francaise) ، وسندرس علاقة الحجاج بالحوار من خلال مقطع حواري وارد في سورة " الشعراء من الآية ٩ إلى الآية ٥٠" .

٦- نموذج حجاجي من سورة الشعراء:

حوار موسى عليه السلام مع فرعون والذي ورد في سورة الشعراء بين الآية ١٠ والآية ٥١.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١٠) (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ) ١١ (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) (١٢) (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ) (١٣) (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)(١٤) (قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) (١٥) (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١٦) (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (١٧) (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) (١٨) (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (١٩).

(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (٢١) (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (٢٢) (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) (٢٣) (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن

كُنتُم مُّوقِنِينَ) ٢٤ (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) ٢٥ (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) ٢٦ (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) ٢٧ (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) ٢٨ (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) ٢٩ (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) ٣٠ (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ٣١ (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)٣٢ (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) ٣٣ (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) ٣٤ (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) ٣٥ (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) ٣٦ (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) ٣٧ (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) ٣٨ (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) ٣٩(لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) ٤٠ (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) ٤١ (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ) ٤٣ (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) ٤٤ (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) ٤٥ (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) ٤٦ (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ٤٧(رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) ٤٨ (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) ٤٩ (قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) ٥٠ (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) ٥١ (۞).

يمكن تقسيم هذا المشهد الحواري الوارد في سورة الشعراء " –وهي سورة مكية – إلى فصلين :

– الفصل الأول : يمتد من (الآية ١٠ إلى الآية ١٧)، وهو يتعلق بما قبل الحوار الفعلى بين موسى وفرعون – الفصل الثاني : ينطلق من (الآية ١٦ وينتهي عند الآية ٥١)، وهو يهم بالحوار والمناظرة التي وقعت بين موسى

وفرعون، مع تدخل أطراف أخرى (الملأ والسحرة)، ويعتبر الفصل الأول بمثابة مقدمات ضرورية للحوار / المناظرة المرتقبة . وهذه المقدمات تتمثل في ضرورة الإعداد الكامل – روحيا ونفسيا و ماديا – لذلك المشهد التواصلي وما يقتضيه من امتلاك لعناصر القوة منها ما هو إلهي ومنها ما هو ذاتي مرتبط بشخص موسى وأخيه، ممثلة في: (مؤازرة هارون لموسي بوصفه الأخ والرفيق في دعوته ومواجهته لفرعون – الدعم الإلهي : العون في حل عقدة اللسان وطلاقته والإحساس الروحي بالرعاية الإلهية) . وقد جاء هذا الفصل في حوار ثنائي بين الله عز وجل وكليمه موسى: (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ١٠ (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ) ١١ (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) ١٢ (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ) ١٣ (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)١٤ (قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) ١٥ (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ١٦ (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (١٧)) .

أما الفصل الحواري الثاني فيمثل صلب المشهد الحواري العام ولبه؛ إذ يتضمن مراحل المناظرة الحوارية التي جرت بين موسى وفرعون . ويبدأ هذا الفصل بخطاب موسى إلى فرعون من خلال تقديمه لنفسه ولأخيه : (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١٦)، ويعد هذا الاتصال الأولي – أو ما يعرف في علم التواصل بآلية التعارف ، كما أنه إعلام بماهية المحاور؛ أي بوضعه (رسول الله)، وفي هذا تلميح قوي لشخصية المحاوَر (فرعون) الذي يدعي الألوهية والربوبية، وإعلان كذلك عن مهمته التي جاء أو أرسل من أجلها بمعية أخيه (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ). ثم جاء بعد الإعلان عن طبيعة المهمة التي قدما من أجلها رد – وهو رد فرعون ذي الطبيعة الاعتراضية ليذكر موسي بمساره بين أهل فرعون :

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) ١٨ (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ١٩ . وقد استعمل فرعون هنا استفهاما غير مباشر وضمنه معنى حجاجيا إبطاليا .(أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) ١٨، كما سلك فرعون في رده هذا مسلكا يعرف في مجال المناظرة بالغصب (وهو من الآليات أو الصفات المذمومة في علم المناظرة)، فبدلاً من أن يطلب من محاوره تقديم الدليل على صحة دعواه (وجود رب العالمين وكونه رسولا منه)، سارع إلى إبطال هذه الدعوى بواسطة الطعن والتكذيب[١] واتهامه بالكفر (أي الكفر بفرعون " الإله ") . والغصب هو " أخذ المناظِر وظيفة الاستدلال على بطلان دعوى الخصم، قبل أن يترك له فرصة إقامة الدليل عليها .

فكلما صح للسائل أن يمنعه؛ أي أن يطلب من المعلل إقامة الدليل عليه، فإن استدلاله على بطلانه غصب ممنوع، فإذا أقام السائل الدليل على إبطال الدعوى التي قدمها المعلل، قبل أن يسمح له بإقامة الدليل على صحة دعواه، فهو غاصب لحق خصمه، وكذلك إذا أقام السائل الدليل على إبطال مقدمة من مقدمات دليل المعلل، قبل أن يسمح له بإقامة الدليل على صحة هذه المقدمة، فهو غاصب لحق خصمه، ومقدمات الدليل لا تخرج عن كونها دعاوى قابلة للمنع [٢] .

كما أن رد فرعون يتضمن مغالطة من نوع المغالطات الناشئة عن تجاهل المطلوب "، " ويتحقق هذا بالهروب من الاستدلال على المدعي، إلى إقامة الدليل على غيره مما يلتبس به، للإيهام بأن المستدل قد قدم الدليل على

(١) إدريس أوهنا، الحوار في القرآن، ص ٦٥.

(٢) حسن بن حنبكة الميداني (ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، ص ٤٥٢.

المطلوب"[1] (حنبكة الميداني م نفسه . ٣٠٩)، ومنه " هروب المغالط من إقامة الحجة على المدعى، إلى الطعن في شخص خصمه، وهذا في حقيقته هروب من منهج الحجة إلى بداءة الشتائم"[2] (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)، فما قاله فرعون جاء لتغطية ضعف حجته و تمويه مخاطبه، إذ لجأ إلى الطعن في شخص موسى، وتسمى هذه الآلية الحجاجية بالحجة الموجهة إلى الإنسان ، وهو إجراء حجاجي يتعلق بالتصدي إلى الشخص المحاور الخصم وليس إلى الحجج والأدلة التي يقدمها ويعرضها بهدف تحقيره والتقليل من شأنه، إلا أن موسى أبان في رده عن درجة عالية من سمو الحوار ونبله من خلاله إقراره واعترافه بالخطأ – أي قتل النفس – دون عناد أو مكابرة.

ثم ذكر موسى فرعون مجددا بأنه وهب الحكم من ربه الذي جعله من المرسلين: (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وهنا فتح باب المناظرة بسؤال فرعون : (ما رب العالمين)، و " ما " في هذا الاستفهام تدل على أنه طلب معرفة حقيقة الرب. فأجاب موسى: (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)) وهذه إجابة تبين وتشرح لفرعون حقيقة إله موسى، وهي إجابة مختصرة وجامعة ومذيلة أو مقيدة بشرط اليقين والاعتقاد والإيمان؛ أي رب الكون بسماواته وأرضه وموجوداته، وهذه المظاهر الطبيعية تمثل بالطبع مجال اليقين والبرهنة على وجود رب العالمين، من هنا فجواب موسى التفسيري لحقيقة الرب لا يخلو من دلالة حجاجية ومن توجيه حجاجي، ونلاحظ أن موسى استعمل في إجاباته وردوده ضمير المخاطب الجمع، ويعني هذا أن موسى كان يوجه خطابه إلى فرعون ومن معه من الملا؛ أي علية قومه وحاشيته المقربة، ويستمر فرعون في حجاجه المتعلق

(١) السابق، ص ٣٠٩ .

(٢) السابق، ص ٤٥٢.

بشخص موسى أي استعماله " الحجة الموجهة للشخص "، ونعته موسي؛ بالجنون: (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧،)، وقد أكد قوله باستعمال حرف التوكيد " اللام " (مجنون) لتأكيد سخريته واستهزائه من شخص موسى .

ونظير ذلك نجده في سورة الذاريات، حيث وصف فرعون موسى عليه السلام بالجنون والسحر: (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)(٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩)) . وفي هذا النعت المزدوج تناقض صارخ؛ إذ كيف يعقل أن يكون المرء مرة ساحرا وأخرى مجنونا؛ إذ إن من صفات الساحر حدة الذكاء والفطنة والدهاء، وهي صفات تنتفي، بالطبع، في الحنون.

ثم كيف يستساغ أن يكون موسى في الوقت نفسه رسولا ومجنونا، وكل هذا من صنف الحجج المغالطية، وهي من الحجج الباطلة القائمة على المغالطة، أو الحجاج المغالطي لا على الغلط، " فإذا كانت مقدمات الحجة قائمة على خطأ مقصود مغلف بما يوهم أنه حق، من أجل التمويه والتضليل، فهي مغالطة من المغالطات، والغرض منها إبطال الحقائق، ويصطنعها أهل الباطل "[1].

• إن رد فرعون الساخر والمستفز لم يثن موسى عن عزمه، وترك باب الحوار مفتوحا ومواصلته فى هدوء وحلم ويسر؛ لأنه رسول ومبعوث في مهمة إليه رب العالمين، موضوع الحوار : إثبات الربوبية لله ونزعها عن غيره (فرعون نموذجا)؛ لذا أعاد التذكير بحقيقة هذا الإله الذي ينكره فرعون وقومه : "(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون). ويظهر أن في العبارة الأخيرة (إن كنتم تعقلون) ردًّا ذكيًّا ومناسبا على اتهام فرعون له بالجنون، فهو يحتكم إلى مقياس العقل ويدعو فرعون وقومه إلى استخدام هذا المقياس. فكيف

(١) الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ص ٣٠٤.

لمجنون إذن أن يدعو إلى استعمال العقل ؟ وبهذا نستخلص أن هذه العبارة (إن كنتم تعقلون) استعملت هنا استعمالا حجاجيا إبطاليا (refutatif) غايته تقويض ادعاء الخصم (فرعون) وتبكيته ونسفه، فرد موسي هو ذو طابع حجاجي إبطالي .

وبعد هذا الرد الحجاجي ذي الطابعين الإقناعي والتبكيتي، يأتي تعقيب فرعون المغلف بالتهديد بالسجن: (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين)، وهو تعقيب يومئ إلى اتجاه فرعون إلى سد باب الحوار وإغلاقه؛ أي اللجوء إلى وسيلة العنف والعقاب، وخصوصا عندما تبين له أن موسي متشبث بدعواه – ويظهر ذلك من خلال إعادة تفسيره لحقيقة إلهه – بل وخصوصا عندما أحس أن أقوال موسى الشارحة لحقيقة ربه من شأنها أن تهدم براهينه وتقوض سلطانه وأن تؤثر في من حوله من الحاضرين، وقد لجأ فرعون في موقفه هذا إلى ما يدعى ب " حجة القوة أو حجة المواجهة بالعنف"[1]، وذلك أن الاختلاف في الرأي لا تنفع في دفعه أبدا المواجهة بالعنف كائنا ما كان شكلها أو حجمها، وإنما الذي ينفع فيه هو فتح المجال لممارسة الإقناع بالحجة والإذعان للصواب، ولا إقناع ولا إذعان إلا إذا توسل المختلفان في الرأي (وهما موسى وفرعون) في ذلك بالقدر المشترك بينهما من المعارف والأدلة، إذ لا بد أن تكون هناك – بحكم طبيعة المجال التداولي الذي يجمعهما– جملة دنيا من الحقائق والاستدلالات لا يختلفان فيهما، وبناء على هاتين الجملتين من الحقائق والاستدلالات ينبغي أن يدخل كل واحد منهما في إقناع الآخر، بحيث إذا تبين أحدهما بوضوح الطريق الذي يوصل من هذه الحقائق والاستدلالات المشتركة إلى الرأي المتنازع فيه، إن إثباتا أو إبطالا، لزمه الإذعان له.

(١) الميداني، ضوابط المعرفة، ص ٣٠٤.

إلا أن موسى عليه السلام – الرسول والمبعوث في مهمة إلهية محددة – عقب بعرضه اقتراحا على فرعون يتمثل في الإتيان بشيء مبين؛ أي الإتيان بدليل مقنع يؤكد صدق دعواه وصحة رسالته: (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣))، وفي هذا العرض رغبة من موسى، من جهة، في استمرار الحوار وعدم إغلاق بابه، ومن جهة أخرى الاستطراد في إثبات براهينه وحججه المقوضة والناسفة لاستدلالات فرعون، ومن تم التأثير على الحاضرين وحملهم على الإقتناع (la persuasion) بصحة دعواه وصدق رسالته .

إن هذا الاقتراح جاء في سياق مسار أو برنامج حجاجي واضح المعالم تميز بالتدرج في عرض الحجج واستخدامها بهدف بلوغ النتيجة التي يروم موسي تحقيقها في مهمته (إثبات ربوبية الله الأحد ونسف ادعاء فرعون بالألوهية، ومن ثم تحرير شعبه– بنو إسرائيل– من الاضطهاد والاستعباد الفرعوني)، فأسلوب موسى عليه السلام في هذا الحوار الحجاجي يتميز بتقنية " التدرج في إقامة الدليل والحجة، وعدم إدراج كل البراهين والحجج دفعة واحدة، بل الاقتصار على الضروري منها حسبما يتطلبه الموقف وتفتضيه الحاجة إلى البيان والإقناع أو الرد "[1]. فموسى لم يتعجل في عرض تلك المعجزات الباهرة أمام أنظار فرعون وملئه، بل إنه لم يظهرها إلا في الوقت المناسب؛ أي عندما هدده فرعون بالسجن .

وبعد موافقة فرعون على عرض موسى بغية التأكد من صدق دعواه : (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١))، وفي هذا القبول نوع من التوافق المرئي (accord partiel) بين فرعون وموسى عليه السلام، فهذا الأخير، عمد إلى إظهار تلك الآيات الربانية الباهرة: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ

(١) إدريس أوهنا، أسلوب الحوار في القرآن الكريم، ص ٧١.

(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)). وفي هذا العمل تصديق لوعد الله تعالى السابق لنبيه موسى : (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)). كما نجد أن موسي نوع، من خلال إظهار هذه المعجزات، بين الحجج والأدلة العقلية وبين الحجج والأدلة الحسية المرئية والملموسة التي تعتبر حججا تجريبية مرئية غير قابلة للدحض والإبطال .

بيد أن فرعون استمر في إنكاره ورفضه لحجج موسى، فرد بمنطق "الحجة الموجهة إلى الشخص "، متهما موسى هذه المرة ليس بالجنون بل بالخداع والتلاعب في وصفه له بالساحر العليم عبر توجيه الخطاب إلى من معه من الملأ طالبا مشورتهم، ولعل في هذا التقرير نوعا من الإحساس بالضعف والانكماش والاندحار : (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥))، بل نجد في قوله أيضا نوعا من المكابرة التي هي بمثابة منازعة ونوع من أنواع الإبطال (la refutation). " فمن المكابرة منع البديهيات وعدم التسليم بها . ومن المكابرة عدم التسليم بالتصديقات النظرية التي أقام المعلل عليها دليلا صحيحا لا يتطرق إليه الخلل بوجه من الوجوه . ومن المكابرة منع الدليل جملة واحدة، أو منع مقدمة غير معينة منه . ومن المكابرة نقض دليل بلا شاهد ، وللمكابرة وظيفة مردودة لا تسمع ولا تقبل، والمكابر يحكم على نفسه بالهزيمة في حلبة المناظرة [١] .

وقد اختتم هذا الفصل الثاني – ومعه المشهد الحواري برمته – بسرد أحداث ووقائع حوارية انتهت بنجاح الحوار / المناظرة من منظور موسى رغم تعنت فرعون، خصوصا بعد إيمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمغالبة موسى ومقارعته، وفي لجوء فرعون إلى السحرة لجوء إلى آلية من آليات الحجاج تدعى " حجة السلطة "(argument d autorite)، فالسحرة كانوا يتمتعون بسلطة علمية واجتماعية اعتبارية ومتميزة في ذلك العصر .

---

(١) الميداني، ضوابط المعرفة، ص ٤٥٤.

وهذه النتيجة (إيمان السحرة) تعني انهزام فرعون واندحاره أمام موسي والملأ، بل وأمام كل الحاضرين من عموم الناس . وقد تجسد انهزام فرعون بعد سجود السحرة (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦))، ونلاحظ استمرار تعنث فرعون، بعد قولهم :(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨))، في قوله : (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩))، فهل الإيمان يحتاج إلى إذن؟ ولعل هذا القول دليل على الحالة النفسية المندحرة والمهزومة التي وصل إليها فرعون، ثم استمرت المواجهة بين موسى وفرعون من خلال أحداث لاحقة انتهت بغرق فرعون وأتباعه وحياة موسى ومن معه.

لقد ملك كل من موسى عليه السلام وفرعون استراتيجية حجاجية محددة كان الغرض منها تعقيد موقف كل منهما وإبطال الموقف المضاد لخصمه والعمل على تقويضه ونسفه، وقد أدرجا في سبيل ذلك الغرض طائفة من الحجج والحجج المضادة المتسلسلة والمتنوعة. ويعكس هذا المسار أو البرنامج الحجاجي المتدرج الذي تبناه كل طرف الطابع القوي والديناميكي للحوار الذي دار بينهما.

إن هذا المشهد الحواري الذي حاولنا إبراز بعض مظاهره الحجاجية يشكل بنية حوارية خطابية/ تداولية (تفاعلية) ذات مكونات ووحدات وظيفية . لعبت فيها الأفعال اللغوية دورا أساسيا، وتم تبادلها بين المتناظرين في السورة موسى عليه السلام وفرعون- موزعة على ثلاث متتاليات شكلت جسد البنية الحوارية في السورة وهي كالآتي :

١. متتالية الافتتاح والتي تستغرق الآيات من ١٠ إلى الآية ١٥.
٢. متتالية جسم الحوار والتي تستغرق من الآية ١٦ إلى الآية ٤٦.
٣. متتالية الاختتام وتستغرق من الآية ٤٧ إلى ٥١.

خاتمة :

لقد حاولنا في هذه الدراسة إبراز بعض مظاهر حجاجية الخطاب القرآني في أبعاده الحوارية، من خلال تحليل بعض المقاطع والمقتطفات الحوارية الواردة في "سورة الشعراء" وقد انتهيا إلى طائفة من النتائج نجملها فيما يلي :

- القرآن الكريم خطاب حواري وحجاجي يرمي إلى الإقناع والتأثير العقلي والوجداني، ويمثل البعدان الحواري والحجاجي مظهرين بارزين من مظاهر خطابيته.
- الخطاب القرآني يتميز بتعدد الحجج وتنوعها وتدرجها، ما بين (عقلية وذهنية مجردة / إعجازية / محسوسة، ومرئية) والتدرج في عرضها وترتيبها .
- الخطاب القرآني يتسم بدقة البناء الحجاجي و متانته وإحكام آلياته .
- الكشف عن طبيعة البرنامج الحجاجي ومساراته وآلياته في القران الكريم يقتضي التعامل مع المادة اللغوية القرآنية في مختلف مستوياتها اللسانية المعجمي والتركيبي والدلالي والتداولي.
- الحجاج مظهر من مظاهر انسجام (coherence) الخطاب القرآني واتساقه (cohesion) : الانسجام والترابط الحجاجي الصريح (الروابط الحجاجية) والمضمر الخفي .
- أن مقام المناظرة أو الحجاج بحسب طبيعة المحاورة الموسوية لفرعون مقام ذو أركان أربعة :

١. ركن السؤال باعتباره استدعاء وطلبا للمدعي المعترض (فرعون).

٢. ركن الجواب باعتباره استدلالا على قيام دعوى المعترض بدليله (موسى عليه السلام).

٣. ركن الاعتراض باعتباره مقابلة يتوجه فيها السائل (فرعون) على نظر المستدل .

٤. ركن وجود التخلص من الاعتراض باعتباره كيفيات تدفع وتسقط الموانع والمعارضات التي نصبها المعترض (فرعون) في وجه الناظر المدعي (موسى).

- أن الحوار الحجاجي في السورة كان يتميز بالرقي والتنوع في إيراد الحجج والأدلة .
- أن القرآن الكريم يمثل دعامة رئيسة لإرساء مبادئ الحوار والحجاج بالإمكان اتخاذه نموذجا يحتذى للرقي بالحوار البشري في اللغات الطبيعية.

* *

المصادر والمراجع العربية

١. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

٢. ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ط وتاريخ .

٣. أبو الوليد الباحي، كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، فيق الإسلامي، ١٩٨٧ تح :عبد المجيد تركي، دار الغرب الاسلامي .

٤. أو هنا إدريس (٢٠٠٥)، أسلوب الحوار في القرآن الكريم : الموضوعات والمناهج والخصائص، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية .

٥. الرفاعي محمد نسيب، تيسير العلي القدير لاختصار بن كثير، مكتبة المعارف، الرياض.

٦. العزاوي أبو بكر (١٩٩٨)، البنية الحجاجية للخطاب القرآني : سورة الأعلى نموذجا "، مجلة المشكاة، عدد ١٩.

٧. الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة (٢٠٠٤)، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، السنة السابعة، دار القلم، دمشق .

٨. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر ع ١ – ٢٠٠١ الكويت.

٩. صولة عبد الله (٢٠٠١)، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات جامعة منوبة تونس، ط ١٠

١٠. طه عبد الرحمن (٢٠٠٠)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط ١ .

١١. طه عبد الرحمن، الحجاج والتواصل، سلسلة الدروس الافتتاحية الدرس العاشر، مطبعة المعارف الجديدة.

١٢. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط١ –١٩٩٨.
١٣. طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل الشبكة العربية للأبحاث والنشر .
١٤. فضل الله محمد حسين، الحوار في القرآن، بيروت .
–نجم الدين الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، تحقيق وولفهارت هينر كس، و ايزر بادن، ١٩٨٧.
١٥. بسام عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، ط ١دمشق ١٤١٨هـ.
١٦. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٩٧.
١٧. الحواس مسعود، البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل أنموذجا، مجلة اللغة والأدب العدد ١٢، جامعة الجزائر ١٩٩٧.
١٨. محمد مرزوق، الحوار الحجاجي في القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام وفرعون نموذجا رسالة ماجستير ٢٠١٥ جامعة قاصدي مرباح الجزائر
١٩. ريستيان بلانتان، لغة المحاججة واللغة الواصفة، ترجمة نصيرة الغماري مجلة اللغة والأدب العدد ١٠، جامعة الجزائر ١٩٩٧.
٢٠. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ط٢ دار الفكر دمشق ١٩٩٥.
٢١. هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، ط١ دار الأمان الرباط ٢٠١٣.

المراجع الأجنبية :

– Benveniste , E . (١٩٦٦) : Pro blenes de linguistique générale , Paris , Gallimard , ٢ tones . – Ducrot , ٠ , (١٩٨٠) : Les chelles :

rgumentatives , Paris , Minuit , – Maschler , J . (١٩٨٥) : Argumentation et conversation : Elements pour une analyse pragmatique du discours , Paris ,

Hatier – Credif . – Roulet , E . , &al .(١٩٨٥) : L ' articulation du discours en francais contemporain , Berne , P . Lang . – Simonet , R . &J .(١٩٩٠) : L ' argumentation , strategies et tactiques , Paris

* * *